تعليق على الصور الشخصية

رامبراندت ـ صورة شخصية ، ١٦٢٦/١٦٢٧ ـ متحف كاسل ·

من اوائل أعماله ، في سن العشرين · الرأس منحرفة قليلا ، متماسكة البناء ، تنفصل بقوة عن الخلفية المضيئة ، يصطدم بها شعاع قوى من الشمس ، ينير العنق و الوجنة اليمنى ، بينما تظل الجبهة و العينان و القسم الايمن بكامله غارقا في الظل · اللون مشرب بالحمرة ، الانف كبير لامع ، كل ما في الصورة يدل على العافية و قوة الشكيمة · نكاد نقول انه وجه ريفي لشاب قوى و ساذج ·

المعالجة على سطوح واسعة بدون تدقيق ، و اللمسة صريحة بمادة لونية وفيرة ، رسمت عليها خطوط الشعر بمقبض الريشة · و بالرغم من ان العينين غارقتين في الظل تكاد ان لا تبينان ، فانهما تبدوان كانهما تحدقان بنا بنفوذ غريب ·

رامبراندت ـ صورة شخصية ، ١٦٢٩ ـ لاهاى ·

صورة الفنان متنكرا في درع محارب ·

نفس النور ، تشع به بشرة الوجه ، حتى الظلال تبدو مهتزة شفافة ·

انه في الثالثة و العشرين ، و لكنه يبدو الفتي المليء بالارادة و الذكاء و الامل في المستقبل ، و الوعي الكامل لقيمته كفنان ·

انه ليدهشنا في هذه السن المبكرة بالمقدرة و الحساسية الفائقتين اللتين يعالج بهما ألوانه ـ و أشكاله ·

فالألوان المضيئة المتداخلة فيما بينها بدعة و انسجام تجعل الوجه يبدو كأنما غلف بأبخرة ليس لها حدود ، وكأنه ينشأ من تكاثف الهواء ، فيتميز بطراوته عن صلابة الدرع الفولاذية التي يرتديها ·

في هذه الفترة كان الفنان يتنقل بين ليد و امستردام ، حيث قام بانجاز عدد من اللوحات لشخصيات من الطبقة الغنية ، درت عليه مبالغ وفيرة ، كما استفاد من علاقته بتاجر الاثار الفنية هندريك فان اولنبورغ ، لبيع لوحاته و رسومه المحفورة ·

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٢٩ ـ متحف أمستردام ٠

المعالجة هنا أكثر حرية ، يبدو رامبراندت سعيدا ضاحكا في بحثه عن أسرار التعبير على قسمات وجهه ، فهو لا ينفك يدور بعينيه يضحك و يقطب ، دارسا حركة العضلات ، ليكشف حركة النفس ٠ و من هنا يتجاوز الواقع الى أعماق الشعور ٠

و في عام ١٦٣٢ ينتقل نهائيا الى أمستردام ، ليقوم بانجاز لوحة (درس التشريح للاستاذ تولب) التي تتضمن مجموعة من الصور الشخصية للاستاذ و تلامذته أمام الجثة التي يقوم بتشريحها ٠ و هي اللوحة التي كانت بداية لشهرته الواسعة ٠

و في نفس العام تظهر ساسكيا ، لاول مرة في حياته و أعماله ، و ستغدو بعد عامين زوجته و نموذجه المفضل ٠ يرزق منها ثلاثة اطفال ، يفقدهم جميعا ٠ و في عام ١٦٤١ يرزق بابنه تيتوس الذي نشاهده في عدد من اللوحات وفي أعمار مختلفة .

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٣٨ ـ متحف درسدن ٠

رامبراندت في الثانية و الثلاثين ، انها أسعد فترات حياته مع زوجته الاولى ساسكيا ، التي وزع حياته بينها و بين عمله ٠ ان هدوء ساسكيا على ركبتي زوجها ، واثقة و سعيدة للحب الذي توحيه ، مؤثر حقا ، في الوقت الذي يرفع رامبراندت كأسه و يضحك بملء جوارحه ، متنكرا في زي محارب ٠ ألوان اللوحة تتفاوت بين الاحمر الخافت و الاخضر الباهت ، و التكوين يوحي برحابة الفراغ ٠

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٣٤ ـ برلين ٠

يوافق تاريخ هذه الصورة تاريخ زواجه بساسكيا ، و يلاحظ مدى الرضى المنطبع على ملامحه الشابة ، هنا لم يلجأ في ملابسه الى أي تنكر ، قبعة عادية ورداء بهاقة من الفرو ٠

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٣٩ ــ درسدن ٠

كثيرا ما أوحى ، ريش طائر ملون ، ينفصل عن خلفية رمادية ، للفنانين الهولنديين بأعمال بديعة ٠ و لكن رامبراندت في هذه الصورة الشخصية يرتفع بالموضوع الى مستوى لم يبلغه أحد قبله ٠

يبدو مرتديا ملابس صياد ، رافعا بيده ، الطريدة ، ليعلقها على مسمار ، جاعلا الطائر الميت يتقدم مخلفا الظل وراءه ، فيتألق ريشه في النور ، ويتجاوب فيه ، بلحن رائع ، الرمادى و الاحمر و الابيض المذهب و لمسات صغيرة من أحمر نارى ٠

ان مادة اللون الخشنة أخذت قيمة موحية ، حتى أننا لنشعر بطراوة الريش ، فرامبراندت هو أول من يمكن أن نتكلم في فنه عن " المادة " التصويرية ، و عن ملمس اللون ، الا أنه لم يتوصل فنان غيره ، لتحويل المادة اللونية الى معنى روحي كما فعل ٠

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٤٠ ــ المتحف الوطني لندن ٠

لاحظ كثير من النقاد ، تأثير لوحة رافائيل التي تمثل " بالتازار كاستيليون " و التي كان رسم لها دراسة قبل تاريخ هذه اللوحة ٠ التعبير يوحي بالثقة و الاطمئنان للنجاح و الاقبال الذى يلاقيه في عمله و في حياته المنزلية ٠

في هذا العام يصاب بوفاة امه ، و بعد عامين (في ١٦٤٢) يصاب بوفاة زوجته ، التي تعيّن قبل وفاتها ابنها تيتوس وريثا لتركتها ، على ان يستفيد منها رامبراندت طيلة حياته أو لحين عقده زواجا جديدا ٠ و لكن عائلة ساسكيا لاتعترف على الوصية ، أحد العوامل التي أدت الـــى خرابه المالي ٠

في نفس العام ينتهي من العمل في تحفته الخالدة " عس الليل " التي كان يعلق عليها آمالا كبارا ، و لكنها على العكس لاقت عدم فهم كامل ٠ و كان هذا الموقـــف نقطة تحول في حياة و انتاج الفنان ٠

لوحة اخرى من نفس الفترة محفورة على المعدن ٠

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٤٨ ·

رامبراندت يرسم ، قطعة حفر ، ربما كانت أقرب الى الواقع من العديد من اللوحات الزيتية · يبدو في مرسمه منكبا على ورقة بثياب العمل ، لم يعد يلجأ للتنكر ، ليس من سلاح بجانبه ولا ريش على رأسه ، انه في حالة تأمل حزين بعد موت ساسكيا ، وما تلاه من مصاعب مالية وفشل في علاقاته مع الاوساط التي يعتمد عليها في تصريف انتاجه ·

الا أنه في عام ١٦٤٥ تدخل في حياته الصبية " هندريكه ستوفل " فتاة في التاسعة عشر ، قروية ساذجة تشرف على منزله ويستخدمها كنموذج للوحاته ·

يرزق منها طفلتان ، ولكنه لايستطيع زواجها بسبب الشرط الوارد في وصية ساسكيا ، ويترتب على علاقتهما استدعاءها أمام المجمع الكنسي ، الذى يوجه اليها توبيخا بسبب تسريبها ، ولكن نفس المجمع لايتعرض لرامبراندت ·

هذا الوضع يزيد من عزلة الفنان وسخطه ، ويزداد فنه بالتالي ابتعادا عن ذوق الجمهور ·

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٥٦/١٦٦٨ ــ متحف فيينا ·

رامبراندت في الخمسين ، وقد طبعت الايام نظرته بطابع الحزن الهادئ النبيل ، الذى ينعكس نضوجا رائعا في فنه ، اننا نشعر بأن مصدر النور هو الوجه نفسه ، فهو يبعث النور ولا يتلقاه · النظرة هي ذاتها ، نظرة انسان يتأمل ويتساءل · نظرة المفكر الذى يحاول سبر اسرار الحياة ·

في تاريخ هذه اللوحة يعلن الدائنون افلاس رامبراندت ، ويلاحظ في الكشف المنظم من اجل الحجز ، تنوع وثراء مجموعاته الفنية التي أنفق في سبيلها الكثير : فراء ، اسلحة ، حلي ، تحف غريبة ، أقمشة قديمة ، قطع منحوتة ، لوحات ، رسوم محفورة ، منمنمات من الهند وفارس ·

كل هذه الاشياء كانت مادته الاولى لاثارة خياله وابداعه ·

وهكذا يقع الفنان تحت رحمة القانون ، وتلغى وصايته على تهتوس ·

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٤٥/١٦٥٠ ــ متحف فلاسكو ٠

رامبراندت يصور " هندريكه ستوفل " الشابة التي اختارها لتعيش معه بعد وفاة زوجتـــه ساسكيا ٠

نراهما في المرسم (الذى انتقل اليه بعد أزمته المالية) ، مرسم فقير كان يستعمل كمستودع للبضائع ٠ هنا نلاحظ موضوع رامبراندت الاساسي في كل أعماله : النور الذى يخرج من الظلمة ، و وسيلته لذلك في هذه اللوحة جسد هندريكه ٠

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٥٧ ــ لندن ــ مجموعة خاصة ٠

صورة اخرى من فترة النضوج ٠ في هذه الفترة يباع منزله لصالح الدائنين ، و تباع مجموعاته الفنية ، فينتقل الى أحد الفنادق ، ثم يغادره لعجزه عن الدفع ٠ و هنا يتساءل المؤرخون ، كيف تمكن الفنان من متابعة العمل في مثل هذه الظروف الصعبة ، و انتاج الاعمال العظيمة ٠

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٥٨ ــ نيويورك ــ مجموعة خاصة ٠

صورة اخرى من نفس الفترة

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٦٠ ــ باريز ــ متحف اللوفر ٠

أمام اللوحة

رامبراندت ــ صورة شخصية ــ ١٦٦٠ ــ متحف ايكس آن بروفانس ٠

صورة للالم المفكر ، رسمتها ريشة عصبية سريعة ، ان هذه الصور ليست وثائق انســـانية مدروسة و منفذة بالدقة التي يلتزمها المؤرخ أو الاخلاقي ، بقدر ما هي كائنات عرفت الظلام ، ثم عادت الينا في حيز مكاني كثيف ، يغرقها نور يعتمد على الذاكرة ، على نور ينبعث من داخلها و ينبؤنا بأنها عارفة لمكنونات ذاتها ٠

بعد هذا التاريخ بسنتين يصاب بوفاة هندريكه و هي في السادسة و الثلاثين ٠

و في عام ١٦٦٨ يفقد ابنه الوحيد تيتوس في السابعة و العشرين ٠

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٦١ ·

في مجموعة اللوحات التي انجزها رامبراندت ليمثل فيها عددا من القديسين و الانبياء ، صور نفسه على هيئة القديس بولس ، اتخذ وجهه من خلال العتمة التي تغلفه ، ملامح هادئة متأملة · يفتح أمامه الكتاب المقدس و يلتفت الينا بنظرة كأنما تشكك في كثير من الاشياء التي يعتقد الناس بأهميتها : النجاح و الثراء و المجد وكل ما يدعوه الانسان سعادة ، لانه خبرها جميعا ، و بعد ان حصل عليها ، تناثرت من بين أصابعه كحبات الرمل ·

انه في سن الخامسة و الخمسين ، يتساءل باستسلام و رضى ، لما هيأته له الاقدار ·

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٦٣ ـ كولونيا ·

هنا نلاحظ أن كمية المادة الملونة على اللوحة قد كثيفة جدا ، و علينا أن ننتظر مونيشيلي و سيزان ثم فان فوغ لنرى مثل هذه الكثافة في لوحاتهم ·

و نلاحظ ان الخلفية قد اشتدت ظلمتها لتخرج الصورة منها مشعة بتألق غريب ، تتماذج فيها الالوان الذهبية و الحمراء ·

لقد صور رامبراندت نفسه و هو يضحك كما فعل في عدد من صور الشباب ، و لكننا هنا أمام تجربة حياة كاملة : ضحكة الشيخ الذى تجاوز تكاليف الحياة و مظاهرها ، و اعتكف بعيدا عن الناس والضوضاء انها ضحكة المأساة الكبرى لحياة انسان تخلى عن الامجاد و اقترب من المرفأ الذى سيسكن اليه ·

رامبراندت ـ صورة شخصية ـ ١٦٦٩ ـ لاهاى

آخر صورة للفنان ، ملامح منتفخة تعبة · صورها في نفس السنة التي توفي فيها ، و قد بلغ الثالثة و الستين · الا أن فعل السنين و الالام لم يؤثر على انسانية هذا الوجه ·

اللوحة غارقة في ظل عام ، يشع فيها النور من الاجزاء البارزة ، خارج الغموض المسيطر على الجو بكامله ، لتتحدث الينا هذه الملامح بآلام نفس كبيرة ، تنتظر ساعتها الموعودة ·

هكذا تمكن رامبراندت من أن يعبر عما حاوله دافنشي من قبله : الكشف عن خفايا الاشياء ـ و سحرها من خلال الظلمة التي تدعونا لتخمين المعاني المخبأة ، بدلا من أن تريناها ·